**المبحث الثَّاني: المصادر الفكرية والنَّقدية والأدبيَّة عند ابن خلدون**

لقد بانت ثقافة ابن خلدون في كتبه سافرة جليَّة، يصرِّحُ بها تارة، ويشير تارات، وقد يعتمد على قول الشيخ أو الكتاب لتعزيز قول أو طَرْحِ مذهب، وهذا دأبه في كلِّ ما أورد من القضايا، ولأهميَّة الأمر رأينا أن نبحث في المصادر الفكريَّة والنَّقديَّة والأدبيَّة الَّتي اعتمد عليها ابن خلدون في طرح مسائل العلم، وغاية ما وصلنا من كتبه تاريخه الموسوم بالعبر، فقد طاول به عِنان الفكر، وجدَّد معه رسم المنهج الحقيقي لتعاطي العلوم بعدما عفَّته مدارك التقليد والجمود، والمتأمِّل في مصادره يجدها على ضربين:

1. **الشيوخ:**

لقد مضت سُنَّةُ أهل العلم قديما في باب التراجم بذكر الشيوخ، وقد اختلفوا في مفهوم الشيخ على أقوال كثيرة تدور أغلبها في مدار واحد، وهو الأستاذ الذي يجلس عنده التلميذ ويأخذ عنه العلم شريطة المعاصرة، وقد تتخلَّل تلك المجالس بعض المطارحات والمناقشات، كما أنَّها تنتهي غالبا بالإجازة، وهي بمثابة التزكيَّة والشّهادة يقدِّمُها الشيخ لتلميذه برهانا على تفوقه واجتيازه مرحلة ما في الفنِّ أو العلم، وقد مرَّ بنا في ترجمة ابن خلدون ذكر شيوخه وما كان من حالهم، وكيف حظي بأساتذة كبار في العلم لمكانة أسرته العريقة، ورأينا كيف أجازه بعضهم بالسَّند العالي في أغلب الفنون العالية منزلةً كالقراءات والعربيَّة والفقه والعلوم العقليَّة، وقد جعلنا ذكر شيوخه موزَّعًا حسب ما يقتضيه المقام، دفعًا لأيِّ نَصَبٍ يَجِده القارئ في تصفح هذه الأوراق.

1. **الكتب والدواوين:**

من قلَّب صفحات كتب التُّراث وَجَدَ الاستناد على الكتب أمرا كالهيكل في البناء، لا يعدل عنه أحد البَّتَّة مهما علا كَعبه في العلم، غير أنَّك تجدُهم بين طويل نفس وضَيِّقِ عَطَنٍ في قضية العزو، وفي قضيَّة اختيار الأجودِ والأحوط، وهذا أمرٌ راجعٌ إلى درجاتٍ متفاوتة في سُمُوِّ الثَّقافة، وواقعٌ أيضا بين أمانة علميَّة غالبا وخيانة لها أحيانا كما اشتهر عند التبريزي والمرزوقي في شرح الحماسة مثلا، وابن خلدون عالمٌ كَسَلَفِه، جرى على ما جرى عليه أسلافه المتقدمون، فكان لديوانه الحظ الأوفر من العزو والاستشهاد، مُتَّسما في عزوه بصفة التحقيق والأمانة والتحليل الفريد في الغالب، ولا يعنينا مِمَّا نحنُ بِصَدَدِه إلا مصادره الأدبية والنقدية، إذْ أنَّ الإحاطة بجميع المصادر جمعٌ لما تَشَعَّث من ألوان الفنون، وعلى سبيل المثال يقف ابن خلدون في خطبة كتابه "العبر" وقفةً إيضاحيَّةً تنبيهيَّةً في مصادر تلقي علم التاريخ إذْ أنَّهُ أقرب الفنُون عرضةً لِشَوَائِبِ المُيُون والتَّزَيُّد، يقول:" والّذين ذهبوا بفضل الشّهرة والإمامة المعتبرة، واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخّرة، هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل، ولا حركات العوامل، مثل ابن إسحاق والطَّبَرِيّ وابن الكلبيِّ ومحمّد بن عمر الواقديّ وسيف بن عمر الأسديّ وغيرهم من المشاهير، المتميّزين عن الجماهير، وإنْ كان في كُتُبِ المسعوديّ والواقديِّ من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الأثبات، ومشهور بين الحَفَظَةِ الثّقات، إلّا أنَّ الكافّة اختصّتهم بقبول أخبارهم، واقتفاء سننهم في التّصنيف واتّباع آثارهم، والنّاقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم"[[1]](#footnote-2)، وهكذا سار ابن خلدون في كل الفنون ينظر وينقل ويمحص، وسوف نأتي بعد هذه التمهيد إلى أهم مصادره الأدبيَّة والنَّقديَّة ونذكر منها:

1**- ابن رشيق وعمدته:**

لسنا نبالغ إن قلنا أنَّ ابن خلدون استند استنادا كبيرا على ابن رشيق عامة، وعمدته خاصَّة، فقد نالت الحظ الغزير من النَّقل والإشادة، وعلى طريقة الاستقصاء والإحصاء فقد تردَّد ذكر ابن رشيق القيرواني في ديوان العبر ستَّةَ مواضع، نأتي على سردها موضعًا موضعًا:

* الموضع الأول:

قال ابن خلدون في فصل صناعة الغناء: "وربَّما ناسبوا في غنائهم بين النَّغَمَاتِ مناسبةً بسيطةً كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره، وكانوا يسمّونه السِّنَاد"[[2]](#footnote-3) .

* الموضع الثاني:

قال ابن خلدون في فصل علم البيان: "وممَّن ألّف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور، وجرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه"[[3]](#footnote-4) .

* الموضع الثالث:

قال ابن خلدون في الفصل الثاني والخمسين:" وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطّبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بإفريقيّة من مشاهير الشّعراء إلّا ابن رشيق وابن شرف، وأكثر ما يكون فيها الشّعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتّى الآن مائلة إلى القصور"[[4]](#footnote-5).

* الموضع الرابع:

قال ابن خلدون في فصل صناعة الشِّعر:" وربّما قالوا إنّ من بواعثه العشق والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة، وهو الكتاب الّذي انفرد بهذه الصّناعة وإعطاء حقّها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله"[[5]](#footnote-6)، وهو بهذا القول قد أشار لعظيم الكتاب وجلالة مؤَّلفه، وأشار ضمنيًّا إلى أنَّه قد اتَّخذه مصدرا هامًّا في قضايا الشِّعر.

* الموضع الخامس:

قال ابن خلدون في نفس الفصل السابق: "وبالجملة فهذه الصّناعة وتعلّمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد، ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك"[[6]](#footnote-7).

* الموضع السَّادس:

قال ابن خلدون في الفصل الثامن والخمسين:" ولذلك يذكرونها في الفنون الأدبيّة الّتي لا موضوع لها، وهو رأي ابن رشيق في كتاب العمدة له، وأدباء الأندلس"[[7]](#footnote-8)، وقال أيضا في نفس السِّياق (والصَّفحة):" ثمّ من شروط استعمالها عندهم الإقلال منها وأن تكون في بيتين أو ثلاثة من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه، والإكثار منها عيب، قاله ابن رشيق وغيره".

* **مقارنة بين أبواب العمدة والمقدمة:**

قمنا بعمل مقارنة بين أبواب الشِّعر عند ابن رشيق وعند ابن خلدون لنرى وجه التَّقارب، وكيف استند هذا الأخير على عمدة ابن رشيق في تأصيل قضايا الشِّعر، وهي موضَّحةٌ مرُتَّبة في الجدول التالي:

|  |  |
| --- | --- |
| **ترتيب ابن رشيق في العمدة** | **ترتيب ابن خلدون في المُقَدِّمة** |
| **باب حدِّ الشِّعر وبِنيته** | **فصل في صناعة الشِّعر ووجهِ تَعَلُّمِه** |
| **باب في اللفظ والمعنى** | **فصل في أنَّ صناعة النَّظم والنَّثر إنَّما هي في الألفاظ لا المعاني** |
| **باب في المطبوع والمصنوع** | **فصل في أنَّ حصول الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بكثرة المحفوظ** |
| **باب في عمل الشِّعر وشَحْذِ القريحة له** | **فصل في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع** |

**ب- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني:**

حَظِيَ "كتاب الأغاني" بالنَّصيب الوافر الَّذي لا يَقِلُّ عن نظيره "العمدة"، إذ كان ولا زال إلى ساعتنا هذه ديوان العرب الكبير، وجامع الشَّرائد والفرائد، ولم يستغن عنه أديب قطُّ أو ناقد حمل نفسه مَرْكَبَ الأَدَب، وقد طال نَهْلُ ابن خلدون من الأغاني فتَرَدَّدَ ذكره كثيرا، في فصول شتَّى من الديوان، غير أنَّنا سوف نعرض بعض المواضع التَّي تَتَّصل بسياقنا النَّقديِّ والأدبيِّ، وهي كالآتي:

* الموضع الأول:

قال ابن خلدون في الفصل السادس والأربعين:" وقد ألّف القاضي أبو الفرج الأصبهانيّ كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيّامهم ودولهم، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتا الّتي اختارها المغنّون للرّشيد فاستوعب فيه ذلك أتمّ استيعاب وأوفاه، ولعمري إنَّه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن الّتي سلفت لهم في كلّ فنٍّ من فنون الشِّعر والتّأريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية الّتي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنّى له بها"[[8]](#footnote-9)، وليت شعري هل نملك أن ندفع هذه الشهادة عن الأغاني؟

* الموضع الثاني:

قال ابن خلدون في الفصل الثاني والخمسين:" وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم فإنَّ ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم، وفيه لغتهم وأخبارهم وأيّامهم وملّتهم العربيّة وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر معانيهم له فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب"[[9]](#footnote-10)، وهذه شهادة أخرى على كتاب الأغاني، مُشِيدَةً بِفَضلِه.

* الموضع الثالث:

قال ابن خلدون في فصل صناعة الشِّعر:" وأكثره شعر كتاب الأغاني لأنّه جمع شعر أهل الطّبقة الإسلاميّة كلّه والمختار من شعر الجاهليّة"[[10]](#footnote-11).

**ج- بعض المصادرِ المذكورة بالجمع:**

ولمَّا اختَصَّ ابن خلدون كتابيْ "العمدة" و"الأغاني" بالذِّكر مفردة، فقد ذكرَ مصادرا أدبيَّة ونقديَّة أخرى في مَعْرِضِ الجمع، نذكر منها كتب الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني والسَّكاكيِّ، قال ابن خلدون:" فإنّ عبد القاهر الجرجانيّ وأبا يوسف السّكاكيّ وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة"[[11]](#footnote-12)، والسُّهَيليِّ قد ذكره في مواضع كثيرة سوى أنَّه لم يُسَمِّ لنا كتابه، والظاهر أنَّه كتاب "الرَّوضِ الأُنُفْ"، وذكر من المتقدمين أيضا إمام النَّقد وحامل رايته ابن قتيبة، قال:" وقال ابن قتيبة في هذه الحكاية إنَّ الّذي عدا على التبَّعي هو مالك بن العجلان، وأنكره السُّهيليُّ"[[12]](#footnote-13)، كما أنَّ ابن خلدون لم يُغْفِلْ كتاب "العقد الفريد" الذائع الصِّيت لصاحبه ابن عبد رَبِّه، قال:" ومن أمثال هذه الحكايات ما نقله ابن عبد ربّه صاحب العقد من حديث الزّنبيل"[[13]](#footnote-14)، هذا وديوان العبر مشحون بمصادر كثيرة ونفيسة تشهد لصاحبها ابن خلدون بغزارة الاطلاع، وقوة الاستقصاء، وأصالة الفكر، وجِدَّة الطَّبع.

وههنا كلام للأديب الباحث محمود محمَّد شاكر يصف فيه ابن خلدون، قال:" كانَ هذَا الرَّجُلُ ذكيًّا قادرًا بليغًا دقيق العبارة جيد الإفصاح عن ضمير نفسه، مُشْرِقَ الفهم رَحْبَ الإدراك، يقع لهُ الأمر من الأمور فيفصّله ويبيّنه ويوضحهُ ويجمع إليه القرائن ويجيد القياسَ بين شيءٍ وشيءٍ مِمَّا يَحْدُثُ لهُ أو لغيره من النَّاس، فوضَعَ من ذلك في ذهنهِ شيئًا كثيرًا، هو الذي اجتمع لهُ حين ألّف مقدمته المشهورة في الشرق والغرب، فأخرج فيها من الحقائق، والنظريات والأسس في حياة الدولة ما لم يجمعهُ كتاب عربيٌّ قبلهُ، وما ذلك إلا لأنَّهُ كان -كما أسلفنا- (بليغًا، دقيق العبارة، جيّد الإفصاح عن ضميره نفسهِ)"[[14]](#footnote-15).

1. ابن خلدون، المصدر السَّابق، ج1، ص 07. [↑](#footnote-ref-2)
2. ابن خلدون، المصدر السَّابق، ج1، ص 539. [↑](#footnote-ref-3)
3. المصدر نفسه ، ج1، ص 762. [↑](#footnote-ref-4)
4. المصدر نفسه، ج1، ص 779. [↑](#footnote-ref-5)
5. المصدر نفسه، ج1، ص 791. [↑](#footnote-ref-6)
6. ابن خلدون، المصدر السَّابق ، ج1، ص 792. [↑](#footnote-ref-7)
7. المصدر نفسه ، ج1، ص 802. [↑](#footnote-ref-8)
8. ابن خلدون، المصدر السَّابق، ج1، ص 764. [↑](#footnote-ref-9)
9. المصدر نفسه، ج1، ص 780. [↑](#footnote-ref-10)
10. ابن خلدون،المصدر السابق ، ج1، ص 790. [↑](#footnote-ref-11)
11. المصدر نفسه ، ج1، ص 732. [↑](#footnote-ref-12)
12. المصدر نفسه، ج2، ص 346. [↑](#footnote-ref-13)
13. المصدر نفسه، ج1، ص 26. [↑](#footnote-ref-14)
14. محمود محمد شاكر، جمهرة مقالات محمود شاكر، جمع عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط1، سنة 2003م، ج2، ص 674. [↑](#footnote-ref-15)